جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية
Naif Arab University For Security Sciences

# البحوث الاجتماعية وخطط التنمية في القطر التونسي

الدكتور عبدالقادر الزغل

الرياض

1408 هـ - 1988 م

# البحوث الاجتماعية وخطط التنمية في القطر التونسي

الدكتور عبدالقادر الزغل(*)

**المقدمـــة :**

ارتبط بروز البحوث الاجتماعيةكنشاط علمي يدرس في الكليات والمعاهد العليا بنمو التصنيع في أوروبا وأمريكا في بداية القرن الأخير، ولهذا نجد ان ما يسمون بمؤسسي هذه المادة العلمية ينتمون كلهم الى عالم الغرب مثل: كانت ودوركايم فيبر أو ماركس ويذكر اسم ابن خلدون كرائد عبقري ركز تفكيره على هياكل مجتمعه التي لا علاقة لها بالمجتمعات الحديثة الناجمة عن التصنيع.

هذه الملاحظة الأخيرة معقولة ولكن يجب ايضا تطبيقها على من وقع تسميتهم بمؤسسي علم الاجتماع لقد كانت مشاغلهم الرئيسية مرتبطة بالتقلبات الاجتماعية التي شهدتها

(*) مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية تونس.

أوروبا وأمريكا في بداية القرن الأخير ومع هذا فإن نشاطهم العلمي المرتبط بالتوسع الاستعماري قد تجاوز حدود أوروبا وأمريكا والحقيقة أن كثيراً من نظريات مؤسسي علم الاجتماع لا تخلو من التعصب الى الثقافة الغربية ولو كان ذلك في بعض الأحيان على حسن نية.

المهم من ناحيتنا كعرب أن مجتمعنا لم يواصل بصفة جدية ما قام به ابن خلدون وصرنا كعرب موضوع بحث لتسهيل عملية الاستعمار السياسي والثقافي ولم يبدأ تغير هذا الوضع الا بعد الاستقلال، وأود ان أقدم هنا تجربة تونس كمثال واقعي لهذا التحول من حالة موضوع بحث للأجانب الى مستوى المساهمة في علم مرتبط أساسا بتجربة التصنيع في المجتمعات الغربية

**التجربة التونسية للبحوث الاجتماعية:**

من غرائب الأمور أن تونس ـ بلاد ابن خلدون ـ لم تنجب أي اختصاصي في علم الاجتماع او في علم الانثربولوجيا قبل الستينيات وقد سعى المسئولون في الدولة التونسية الى معرفة مظاهر الواقع الاجتماعي للتحكم في التغيرات الناشئة عن التنمية الاقتصادية ولذا ظهر ما يمكن تسميته بالجيل الأول من الباحثين الاجتماعيين التونسيين، وقد

تبلور هذا الاتجاه خاصة بعد تولي الحكومة التونسية سياسة التخطيط سنة ١٩٦١م حيث أسست مؤسسة جامعية مستقلة للبحث في العلوم الاجتماعية وتمثلت مهمة هذه المؤسسة مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية حسب تفكير مسئولي التخطيط أساسا في تكوين نواة باحثين جامعيين مهتمين بمشاكل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية بدون ان يكونوا ملزمين مباشرة بتنفيذ عملية التخطيط ولهذا فقد اقتصر المركز في البداية على ثلاثة اقسام (علم الاجتماع، علم الاقتصاد، وعلم الجغرافيا)، وبعد مدة توسع المركز ليشمل ثلاثة أقسام أخرى (الألسنية والديمغراجيا، والحقوق).

**اتجاهات البحوث في العشرية الأولى:**

اذا راجعنا الابحاث المنشورة (مقالات وكتب) يمكن لنا بصفة واضحة ان نطلع على أهم مراكز الاهتمام للجيل الأول من الباحثين التونسيين وتنقسم هذه الأبحاث الى قسمين رئيسيين:

**القسم الأول:** الأبحاث التي اهتم بها الباحثون في مختلف التخصصات (اجتماع، اقتصاد، جغرافيا، ديموغرافيا).
**القسم الثاني:** الأبحاث التي تبدو ميدان اختصاص معين.

## الجدول رقم ( ١ )

| الموضوعات | المنشورات | الباحثون | المقالات أو الكتب |
|---|---|---|---|
| اصلاح الهياكل الفلاحية | ١ كتاب | ١ جغرافي | ١ |
| والتعاضدات الفلاحية. | ١٨ مقالا | ٤ جغرافيون | ٩ |
| | | ٣ علماء اجتماع | ٧ |
| | | عالما اقتصاد | ٢ |
| التعمير وعلاقات | ١٦ مقالا | ٦ جغرافيون | ٩ |
| المدينة بالريف | | عالما اجتماع | ٥ |
| | | ١ ديمغرافي | ١ |
| | | ١ اقتصادي | ١ |
| دراسات ديمغرافية | ٣ كتب | ١ ديمغرافي | ٢ |
| | | ٣ ديمغرافيون | ١ |
| | ١١ مقال | ٥ ديمغرافيون | ٩ |
| | | عالما جغرافيا | ٢ |
| | كتاب واحد | عالما اقتصاد | ١ |
| | ٨ مقالات | ٣ ديمغرافيون | ٤ |
| الهجرة الداخلية | | ٣ جغرافيون | ٣ |
| والريفية | | ١ عالم اجتماع | ١ |
| التعليم في المدارس | ١٢ مقالا | ٦ علماء اجتماع | ٨ |
| وخارج المدارس | | ١ اقتصادي | ١ |
| | | ١ ديمغرافي | ١ |
| | | ١ احصائي | ١ |
| | | ١ عالم نفس | ١ |
| التصنيع والتشغيل | كتاب | ٣ علماء اجتماع | ٣ |
| | | ١ احصائي | ١ |
| | ٥ مقالات | ٣ علماء اجتماع | ٣ |
| | | ١ جغرافي | ١ |
| | | ١ ديمغرافي | ١ |
| السياحة | مقالان | ١ عالم اجتماع | ١ |
| | | ١ اقتصادي | ١ |

## الجـــدول رقم (٢)

| التخصص | الموضوعات | المنشورات |
|---|---|---|
| ديمغرافيا | التنظيم العائلي | ١٥ مقالا |
| حقوق | | ٣ مقالات |
| اقتصاد | دراسات حول الاقتصاد التونسي | ٦ مقالات |
| | دراسات نظرية ومنهجية | ٦ مقالات |
| جغرافيا | صناعات تقليدية | ١ مقال |
| | انتاج وترويج المنتوجات الفلاحية | ١ كتاب جماعي<br>١٠ مقالات |
| ألسنية | الثنائية في اللغة ودراسات حول اللهجات المحلية | ٤ كتب مشتركة<br>١٥ مقالا |
| علم الاجتماع | الانحراف | ١ كتاب |
| | الدراسات الاسلامية | ٣ مقالات |
| | العائلة | ٣ مقالات |
| | التقاليد السياسية والنخب الجديدة | ٨ مقالات |

## أهم خصائص هذه البحوث من الناحية النظرية

اذا أردنا تقويم هذه التجربة الأولى من البحوث الاجتماعية في بلد عربي حديث الاستقلال يمكن لنا أن نستنتج أربعة اتجاهات كبرى:

١ ـ ان جل هذه البحوث ركزت أساساً على الواقع التونسي فقط.

٢ ـ اقتصرت جل هذه البحوث على الواقع الملموس، أي على البحث الميداني ولم يقع تجاوز المستوى الميداني الى مستوى النقد النظري أو المنهجي

٣ ـ ارتبطت هذه البحوث أساساً بالتغيرات الناتجة عن عملية تحديث هياكل المجتمع التونسي حسب ارادة الحكومة التونسية.

٤ ـ رغم أن البحوث كانت غالباً فردية فان مواضيع البحث كانت محدودة ونجد غالباً نفس الموضوع مبحوثاً من عدة اختصاصات ونتيجة ذلك فانه في بعض الأحيان لا يمكن أن نفرق بين منهجية عالم الاجتماع وعالم الجغرافيا مثلا وتظهر هذه البحوث أساساً كمجهود جماعي لحجم المشاكل الناتجة عما يسمى بتحديث المجتمع التونسي بدون أي تركيز على المجهود النظري والمنهجي.

ويمكن لنا أن نفسر هذه الاتجاهات بحداثة تقاليد البحث الاجتماعي في المجتمع التونسي وفي رفض اتجاهات البحوث الاجتماعية وُخاصة الانثروغرافية التي قام بها الباحثون الأجانب في عهد الاستعمار ولكن عدم التركيز على الناحية النظرية والمنهجية يقود في غالب الأحيان الى التأثير بدون شعور بالنظريات الجاهزة.

## علاقة البحوث الاجتماعية بسياسة التخطيط

أذكر بأن بعث مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية كان نتيجة اتجاه الاقتصاد التونسي في عملية التخطيط ولكن رغم هذه العلاقة بين البحوث الاجتماعية وسياسة التخطيط فان اختيار موضوعات البحوث في هذا المركز هو قبل كل شي اختيار الباحث نفسه ولا تخضع عملية تقويم البحوث إلا الى مقاييس علمية تحت اشراف هيئة علمية من داخل المركز

والملاحظ أن جل موضوعات البحث كانت مرتبطة عضوياً باهتمامات المسئولين عن التخطيط كالاصلاح الزراعي

وعلاقة المدينة بالريف والهجرة والتعليم وغيرها، وكانت هذه البحوث تكتشف غالباً نقط الضعف في تطبيق انجازات المخطط الاقتصادي والاجتماعي ونتج عن ذلك في آخر السيتنات نوع من سوء التفاهم بين البحثين والمسئولين عن التخطيط.

وبعد أزمة محدودة من الزمن رجع المركز الى حركته الأولى نوعاً ما وأحدثت فيه أقسام جديدة كعلم النفس وعلم التربية.

## الخاتمـــــــة :

تجربه تونس في ميدان البحوث الاجتماعية تبين بكل وضوح أنه لا يمكن القيام ببحوث اجتماعية بدون استقلال سياسي وقد أثبت الباحثون التونسيون بمواجهتهم دراسة واقع مجتمعهم دون مسبقات نظرية واضحة نقط الضعف للنظريات المتسرعة حول مشاكل التنمية وخاصة نظرية التحديث الانجلوسكسونية ولكن يجب الا يطمس ذكر المظاهر الايجابية لهذه التجربة الحديثة في البحوث الاجتماعية المخاطر الحقيقية لجمود ممكن بعد الاندفاع الاول والسؤال المطروح عند الباحثين هو ماهي الطريقة التي يجب ان نتوخاها لانقاذ البحوث الاجتماعية من خطر التكرار الروتيني.

وبالطبع ليس لنا اجابة جاهزة لهذا التساؤل، الاَّ اننا نقدم للنقاش الاقتراحات الآتية التي نعتبرها كخطوة اولى للمشاركة في تركيز الاسس النظرية التي توجه البحوث الميدانية لأنكل بحث يخضع الى نظرية معينة تكون في غالب الأحيان غير واضحة للباحث نفسه

### الاقتراح الأول:

هو تجاوز الاطار الضيق للبحوث الاجتماعية داخل القطر التونسي وتوسيع مراكز اهتمام الباحثين التونسيين

بتجارب مماثلة لبلدان الوطن العربي ولمعرفة احسن للبحوث التي اقيمت في هذه البلدان.

**الاقتراح الثاني:**

هو توسيع مراكز اهتمام الباحثين التونسيين لتشمل لا الأبحاث الحديثة فقط بل كذلك التقاليد والقيم المشتركة للعالم العربي الاسلامي.

**الاقتراح الثالث:**

هو الاطلاع بصفه جدية على النظريات والمناهج الحديثة لنقلها وتوظيفها بصفة واعية، للبحوث الميدانية التي يتطلبها المجتمع العربي.